١١ — محيي الدين بن العربي

كلمة عامة فى التصوف

نشأ علم التصوف ونضج فى العصر العباسى الثالث وهو من العلوم الشرعية الحادثة وأصله العكوف على العبـادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيها من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة

واختلف علماء الاسلام فى أصل كلمة التصوف أو الصوفية فقال جماعة باشتقاقها من الصفاء أو الصفّة وقال آخرون غير ذلك ويرى ابن خلدون أن اشتقاقها من الصوف أقرب الى الصواب لاختصاص أصحابه بلبس الصوف ونحن نخطئه فى هذا التعليل ونعتقد أنها مشتقة من كلمة ثيوصوفيا اليونانية ومعناها الحكمة الالهية والصوفى هو الحكيم الذى يطلب الحكمة الالهية ويسعى لها والوصول الى الحقيقة الالهية هو غاية الصوفى أو المتصوف .

وذلك لأن الصوفية كانوا يبحثون فى ما يقولونه أو يكتبونه بحثاً فلسفياً فى سبيل الحقيقة العليا . ومما يؤيد هذا الرأى أن الصوفية لم يظهروا بعلمهم هذا ولا عرفوا بهذه الصفة إلا بعد ترجمة كتب اليونان الى العربية ودخول لفظ الفلسفة فيها .

الطريقة الصوفية ومراتبها ودرجاتها

ومدار الطريقة الصوفية أو خطتهم العملية فى السعى وراء الحقيقة للوصول اليها محاسبة النفس على الأفعال والتروك وآداب خاصة بهم واصطلاحات فى الفاظ تدور بينهم يدلون بها على ما يريدونه من أساليب المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام فى الأذواق والمواجد العارضة فى طريقها وكيفية الترقى من ذوق الى ذوق وشرح الاصطلاحات التى تدور بينهم .

وللمتصوفين اصطلاحات خاصة بمراتبهم بعضها معلوم وذائع على الألسنة وفى مجالسهم وبعضها يعد من الأسرار المكتومة وقد أفاض كثيرون من المؤلفين فى ذكر تلك المراتب بحيث يحسب القارىء أن للقوم نظاماً باطنياً خفياً فى الظاهر، قوىَّ الأثر فى الحقيقة فمنهم الأوتاد، والابدال، والأقطاب، وأعظمهم القطب الغوث وهذه المراتب يتولاها البعض طول حياته والبعض مدداً محدودة وقد يترك صاحب إحدى تلك المراتب ميراثه لواحد أو أكثر من مريديه أو غيرهم ولذلك أخبار مشهورة عند القوم،

وفى كل زمان ينفرد القطب الغوث بهذا المنصب ولذا يسمى أيضاً صاحب الوقت ومن هؤلاء الأقطاب الغوثية كثيرون من الأولياء ذوى المقامات والأضرحة المشهورة، ويقال فى أعمال هؤلاء الصالحين أنهم أرباب وظائف أهمها الاشراف على النظم الكونية، والاشتراك فى تدبير الأمور العامة والخاصة بطرق معلومة للقوم ولا يعرفها إلا ذووها

وقد صرح كثيرون من المؤلفين بهذه الأمور، وأشار البعض اليها تلميحاً، فتكلم لسهروردى فى أنواع الصوفية وفى ذكر (الملامتى) وشرح حاله وهو الذى يكون فى ظاهر حياته ما يدعو الى الملامة، وتكلم فى رتبة المشيخة وانها أعلا الرتب فى طريق الصوفية بل هى نيابة النبوة فى الدعاء الى الله، والسر فى وصول السالك الى رتبة المشيخة أنه مأمور بسياسة النفس كما يشاء الشيخ وهذا السر هو فى الآية الشريفة « لو انفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم »

ويكون فى الشيخ حينئذ معنى التخلق باخلاق الله تعالى، ويصير المريد جزءاً من الشيخ، كما أن الولد جزء من الوالد، بولادة معنوية والى هذا المعنى الدقيق العجيب أشار سيدنا يسوع المسيح بقوله « لا يدخل ملكوت السماء من لم يولد مرتين » ولهذا يقولون كان الشيخ محيى الدين بن العربى على قدم السيد المسيح، كما كان غيره على قدم سيدنا موسى (ص) وبمثل هذه الولادة يستحق السالك ميراث الأنبياء، وهذا تفسير قولهم « أن العلماء ورثة الأنبياء » .

أما السالكون فينقسمون الى أربعة أقسام وهم :

١ — السالك المجرد
٢ — المجذوب المجرد
٣ — السالك المتدارك بالجذبة
٤ — المجذوب المتدارك بالسلوك

أما الأول فلا يؤهل للمشيخة ولا يبلغها ، والثانى لا يؤهل للمشيخة ، وأما الثالث يؤهل للمشيخة ، ويكون له اتباع تنتقل منه اليهم علوم ، والرابع هو صاحب المقام الأكمل فى المشيخة

تعريف الصوفية وأصل تسميتها

التصوف اسم لثلاث معان :

١ — الذى لا يطفىء نورُ معرفته نورَ ورعه
٢ — ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة
٣ — ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله

قال الجنيد « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات » ويقصد بذلك المجاهدة والمكافحة اللتين يعقبهما الوصول الى الذوق

قلنا أن العلماء اختلفوا فى أصل التصوف ومعناه ، وذكر الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد عبدالله السهروردى فى كتاب « عوارف المعارف » فى نسخة كانت ملكا للمرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطى بن التلاميد التركزى ، وهى مما وقفه سنة ١٢٩٤ هـ وقفاً مؤبداً على عصبه بعده بخطه ، ووصلت الينا استعارة ، فى ذكر منشأ علوم الصوفية :

« أن رسول الله (ص) قال « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به ، كمثل رجل أتى قوماً فقال يا قوم إنى رأيت الجيش بعينى وإنى أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ! فأطاعه طائفة من قومه فادلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم

فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذّب بما جئت به من الحق »

ويريد هؤلاء العلماء من هذه الفرقة أن الذين أطاعوا الرسول (ص) صفت قلوبهم فصاروا « صوفية » (من الصفاء) وانهم بالتقوى زكت نفوسهم ، وبالزهد صفت قلوبهم

ويقول الامام السهروردى أن الصوفى هو المقرّب ، وإن لم يرد فى القرآن ، وان هذا الاسم يطلق على أهل القرب الذين يتزيون بزى الصوفية ، ومشايخ الصوفية كلهم كانوا فى طريق المقربين ، وعلومهم علوم أحوال المقربين ، ومن تطلع الى مقام المقربين من جملة الابرار فهو متصوف ما لم يتحقق بحالهم ، فاذا تحقق بحالهم صار صوفيًا ، ومن عداهما (المتصوف والصوفى) ممن تميز بزى ونسب اليهم ، فهو متشبه بهم

أما الشيخ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى وهو من أئمة هذه الطائفة ومن خير من كتبوا فى علومها وآدابها فقد قال فى باب التصوف فى صفحة ١٦٤ من كتابه الشهير باسم « الرسالة القشيرية » « فقد رُدَّ منشأ الصوفية الى حديث عن أبى جحيفة أنه قال « خرج علينا رسول الله (ص) متغير اللون فقال « ذهب صفو الدنيا وبقى الكدر ، فالموت اليوم تحفة لكل مسلم » ويقول الأستاذ القشيرى هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، وليس يشهد لهذا الاسم قياس ولا اشتقاق

ونفى نسبة هذا الاسم الى لبس الصوف ، لأن القوم لم يختصوا بلبسه ، ونفى نسبتهم الى صُفَّة مسجد رسول الله (ص) بالمدينة ، ونفى نسبتهم أيضًا الى الصفاء لأن اشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد ، وكذلك نفى نسبتهم الى الصف الأول ، ولم يهتد الشيخ القشيرى الى صحة النسبة ، وعندنا ولو كره المكابرون ، أنها من كلمة « ثيوصوفيا » اليونانية كما تقدم ، ومعناها الحكمة الربانية ، فالصوفى هو الحكيم فى سبيل الله

أما تعريف التصوف ومعناه ، فقد عبر كل منهم بما وقع له فى أثناء سلوكه وقال رُوَيْم ابن احمد البغدادى أن التصوف مبنى على ثلاث خصال

(١) التمسك بالفقر والافتقار (٢) التحقق بالبذل والايثار (٣) ترك التعرض والاختيار

وقد أجمع العلماء الصوفية فى تعريف الصوفىّ على « أنه رجل أحب الله فآثره وكره الدنيا فزهد فيها »

بعض اصطلاحات الصوفية المتفق عليها

ان للصوفية الفاظاً يستعملونها ، انفردوا بها عمن سواهم ، وتواطؤا عليها لأغراض لهم وهذا من قبيل اللغات الرمزية الشائعة بين الطوائف فى الشرق والغرب ، وألف فيها علماء أوروبا كتباً ومعاجم باسم روح « الارجو » أو الملاحن وأهمها كتاب العالم الايطالى (نيتشوفورو) ومن هذه الألفاظ :

(الوقت) ومعناه وقتك الذى أنت فيه كوقت الدنيا ، ووقت السرور ، ومن أقوالهم « الاشتغال بفوات وقت ماضٍ تضييع وقت ثان » وقولهم أيضاً « صاحب الوقت » يقصدون « القطب الغوث » ومن ذلك :

(المقام) وهو موضع الاقامة بضرب تطلب ، ومقاساة تكلف

(الحال) معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب

(القبض والبسط) وهما حالتان بعد ترقى العبد عن حالتى الخوف والرجاء

(الهيبة والأنس) وهما فوق القبض والبسط ، كما أن القبض والبسط فوق الخوف والرجاء

(التواجد والوجد والوجود) ومعناها فى حكاية معروفة بين أبى محمد الجريرى والجنيد

(الجمع والفرق) قال فيهما أبو على الدقاق « الفرق ما نسب اليك والجمع ما سلب عنك »

(جمع الجمع) هو الاستهلاك بالكلية وفناء الاحساس وفوقها درجة :

(الفرق الثانى) وهو أن يُرد صاحب هذه المرتبة الى الصحو عند أوقات اداء الفرائض

(الفناء والبقاء) أولهما سقوط الأوصاف المذمومة ، وثانيهما قيام الاوصاف المحمودة ، ولهما معان أخرى ليس هذا مقام شرحها

(الغيبة والحضور) تكون الغيبة للقلب عن علم ما يجرى من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه ، والحضور معناه أن يكون السالك حاضراً بالحق لأنه اذا غاب عن الخلق حضر بالحق

(الصحو والسكر) الصحو رجوع الى الاحساس بعد الغيبة والسكر غيبة بِوَارد قوى

(الذوق والشرب) وهو ما يجده المتصوف من ثمرات التجلى ونتائج الكشوفات وبواده الواردات ، وأعلى منهما درجة :

(الرى) فيقولون صاحب الذوق متساكر ، وصاحب الشرب سكران ، وصاحب الرى صاحٍ ، ومن قوى حبه ، تسرمد شربه

(المحق والاثبات) المحق رفع أوصاف العادة ، والاثبات إقامة أحكام العبادة

(الستر والتجلى) ويقصد بهما أن العوام فى غطاء الستر ، والخواص فى دوام التجلى

(المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة) وهى ثلاث درجات

(اللوائح والطوالع واللوامع) وهى من صفات أصحاب البدايات الصاعدين فى الترقى بالقلب ، أضعفها الأولى وأقواها الأخيرة

(البواده والهجوم) البواده ما يفجأ قلب السالك من الغيب على سبيل الوهلة ، والهجوم ما يرد على القلب بقوة (الوقت) من غير تصنع

(القرب والبعد) أول رتبة فى القرب الاتصاف بالعبادة ، والبعد التدنس بالمخالفة والتجافى عن الطاعة

(الشريعة والحقيقة) الشريعة أمر بالتزام العبودية والحقيقة مشاهدة الربوبية ، وكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبولة ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصولة

(النَفَس) صاحب الانفاس أرقى وأصفى من صاحب الأحوال

فيقال عند القوم ، صاحب (الوقت) مبتدى ، وصاحب (الأحوال) فى وسط (الطريق) وصاحب (الانفاس) منتهى

(الخواطر) خطاب يرد على الضمائر وقد يكون من المَلَك فهو الهام ، وقد يكون من النفس فهو هاجس ، ويكون من الشيطان فهو وسواس ، ويكون من الله سبحانه وتعالى فيكون خاطر حق

وهذا ما أردنا ايراده من تلك المصطلحات بايجاز ليلم بها القارىء ويقف منها على تلك المعانى

ولهم بعد ذلك آداب ، وطرق فى الحيـاة هى أشبه الأشياء بدستور التصوف ، استنبطه العلماء من أخلاق المشايخ والواصلين ، وآدابهم الكاملة

ومن تلك الآداب والقواعد ، التوبة والمجاهدة والخلوة والتقوى والورع والصمت ، والخوف والرجاء ، والحزن والجوع وترك الشهوة والخشوع والتواضع ، وترك الحسد والغيبة ، والقناعة والتحلى بالقناعة والشكر ، والصبر والرضا ، والاستقامة والعبودية ، والصدق والحياء ، والبقاء بباب المراقبة ، والاستسلام للارادة

ولهم آداب فى العشرة ، وأحكام فى السفر والصحبة

ذكر أشهر مشايخ الطريقة الصوفية الأقدمين

(١) أبو اسحق ابراهيم بن أدهم بن المنصور من كورة بلخ تعلم اسم الله الأعظم من رجل بالبادية ودخل مكة وكان يعيش من عمل يده بعد أن كان أميراً من أبناء الملوك وتوفى فى عام ١٦١ هـ

(٢) ثوبان بن ابراهيم أبو الفيض ذو النون المصرى توفى سنة ٢٤٥ هـ وهو مولد كان أبوه نوبياً ، وسبب توبته أنه رأى تيسير الرزق لقنبرة عمياء فى الصحراء فتاب ولزم الباب

(٣) أبو على الفضيل بن عياض من ناحية مرو بخراسان توفى سنة ١٨٧ هـ وكان أصله من قطاع الطريق وأحب جارية فارتقى الجدران اليها فسمع تالياً يتلو « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ؟ » فتاب عن جرائمه وتعلق بعشق أعظم من عشق الجارية

(٤) أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى توفى سنة ٢٠٠ هـ ولد على غير دين الاسلام ثم أسلم وكان مبدؤه العمل وهو فى عرفه طاعة الله وخدمة المسلمين والنصيحة لهم

(٥) أبو الحسن سرى بن المفلس السقطى كان تلميذ الكرخى وخال الجنيد وأستاذه توفى سنة ٢٥٣ هـ ، وكان يقول بنظرية استاذه فى « الطمأنينة »

(٦) أبو نصر بشر بن الحرث الحافى أصله من مرو توفى سنة ٢٢٧ هـ قيل انه بلغ منازل الابرار باتباعه السنة وخدمة الصالحين ونصيحته لاخوانه ومحبته لاصحابه واهل بيته

(٧) أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى توفى سنة ٢٦١ هـ وكان جده مجوسيا ، وهو من أئمة الصوفية وأعلامهم وله مؤلفات جليلة وأتباع كثيرون .

(٨) أبو القاسم الجنيد سيد هـذه الطائفة وأمامهم أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق — قال « ان علمنا هذا (التصوف) مقيد بالكتاب والسنة »

وله كلام صريح بأنه تلقى علمه من الله مباشرة فقـد قيل له من أين استفدته فقال : « من جلوسى بين يدى الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة » وأومأ الى درجة فى داره .

(٩) أبو عثمان الحيرى توفى سنة ٢٩٨ هـ كان من الرى وأقام بنيسابور

(١٠) أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء ، وهبه أبواه لله عز وجل وكان من اكابر المشايخ وعاقبه الله بنسيان القرآن لأنه رأى انساناً جميلا فسأل أستاذه ان كان الله يعذبه فقـال له أستاذه : أو نظرت ؟ سترى غِبَّه ! أى نتيجة النظرة والاعتراض ، فكان ما كان .

(١١) أبو سعيد حسن بن أبى حسن يسار الميسانى البصرى يرجحون مولده بالمدينة عام ٢١ هـ . وكان أبوه معتوق زيد بن ثابت وأمه خيره خادمة أم سلامه نشأ بالبصرة وعاش بالمدينة وجاهد وعلم وتولى القضاء بالبصرة وتوفى سنة ١١٠ هـ فى التسعين من عمره .

(١٢) أبو عبد الله الحسين بن منصور الحلاج المـكنى بابى المغيث ولد بالطور بالبيضاء سنة ٢٤٤ هـ ونشأ وتربى بواسط ورحل الى مكة والهند وتركستان وحوكم مرتين وحكم عليه بالسجن ثم بالصلب فاستشهد فى ذى القعدة سنة ٣٠٩ هـ .

بعض فطاحل المتصوفين الذين ألفوا كتباً

١ — تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري الشاذلي توفى سنة ٧٠٩ هـ وقبره بالقاهرة بسفح جبل المقطم .

مؤلفـــاته

(١) الحكم العطائية طبع بمصر مع شروح سنة ١٢٨٤ و سنة ١٣٠٦ هـ
(٢) تاج العروس وقمع النفوس فى الوصايا طبع مراراً
(٣) لطائف المنن فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن الشاذلى . فى ٦٠٨ صفحات مطبوع فى مصر

٢ — جمال الدين عبد الرزاق الكلشانى توفى سنة ٧٣٠ هـ

مؤلفـــاته

(١) اصطلاحات الصوفية طبع كلكتا سنة ١٨٤٥ م
(٢) رسالة فى القضاء والقدر طبع سنة ١٨٧٥ م
وقد ترجمت اصطلاحاته الى اللغات الاوروبية وطبعت بها . وله بالقاهرة ضريح مشهور بشارع « تحت الربع »

٣ — عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعى توفى سنة ٧٦٨ هـ

مؤلفـــاته

(١) روض الرياحين ، طبع فى مصر سنة ١٣٠١ هـ
(٢) أسنى المفاخر فى مناقب الشيخ عبد القادر (خطية فى برلين)
(٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان وتقلب أحوال الانسان (خطى فى مكاتب أوروبا)

٤ — قطب الدين عبد الكريم بن ابراهيم بن سبط عبد القادر الجيلى ، توفى سنة ٨٢٦ هـ

مؤلفـــاته

(١) الناموس الاعظم والناموس الاقدم فى أربعين مجلداً (خطى فى أوروبا ومصر)
(٢) الانسان الكامل فى معرفة الاوائل والأواخر (طبع مصر)

٥ — عبد الرحمن البسطامى الحنفى الحروفى توفى سنة ٨٥٨ هـ فى (بروسه)

مؤلفـــاته

(١) الفوائح المسكية فى الفواتح المكية
(٢) الدرر فى الحوادث والسير
(٣) تراجم العلماء
(٤) مناهج التوسل فى مباهج الترسل

٦ - ابن أبى بكر الجزولى السملالى ، توفى فى أواخر القرن التاسع

مؤلفـــاته

(١) دلائل الخيرات وشوارق الأنوار فى ذكر الصلاة على المختار وهو كتاب مشهور يستعمله كثيرون من المسلمين للتعبد بالصلاة على النبى (ص) ويستظهره بعضهم

٧ - محمد بن سليمان الكفهجى ، توفى سنة ٨٧٩ هـ ، وولد ببلاد الروم ، وتعلم فى تبريز والقاهرة

مؤلفـــاته

(١) التيسير فى علم التفسير
(٢) تفسير آيات متشابهات

٨ — أبو عبد الله محمد بن يوسف الحسنى السنوسى الصوفى ، توفى سنة ٨٩٢ هـ

مؤلفـــاته

(١) كتاب عقيدة أهل التوحيد، المخرجة من ظلمات الجهل ، وربقة التقليد
(٢) عقيدة أهل التوحيد الصغرى وتسمى « أم البراهين » وقد ترجمت الى الالمانية والفرنسية وطبعت فى (ليبزج) سنة ١٨٤٨ م وفى الجزائر سنة ١٨٩٦ م

٩ — شهاب الدين احمد بن زروق البرنوسى البرلسى الفاسى ، توفى سنة ٨٩٨ هـ له كتب عديدة فى التصوف

منشأ التصوف وتطوره

أما منشأ التصوف الاسلامي ففي قراءة القرآن واستمرار تلاوته بصفة عامة، في مجالس معينة غير مجالس « الذكر برفع الصوت » وقد تحولت مجالس الذكر الى « السماع » وذكر أوائل المتصوفين أمثال ذي النون المصري والجنيد والحلاج، ان « السماع » يحدث « الوجد »

ولكن فرقة « الملامتية » ، وهم من الصوفية الذين لهم حال خاصة بها، أفاض في وصفها السهر وردي في الجزء الثاني من كتاب « عوارف المعارف » انتقدوا « السماع » وعدوه من الشهوات الروحانية، وانتقده الحلاج، وشبه الذكر بجوهرة ثمينة تحجب المعبود عن العابد، ورد أصحاب « السماع » من صوفية بغداد على منتقديهم من « الملامتية » وغيرهم بأن السماع لا يقصد لذاته انما يقصد لاحداث « الوجد » و« فقد الاحساس » وقد كانت هذه هي الحالة في القرن الرابع الهجري

وفي القرن السابع الهجري نزل بالعراق والشرق العربي متصوفون من الهنود أقرب الى المشعوذين من الحكماء الالهيين، فانهم أدخلوا على حلقات الصوفية صنوفاً من المخدرات الصناعية نضرب عن ذكرها صفحاً وأطلقوا عليها اسم « بنج اسرار »

ثم دخلت على الذكر طرائق غريبة عنه مثل الرقص، الذي علله منتحلوه وبرروه بتمثيل دورة الافلاك، وهو لا يزال شائعاً الى يومنا هذا في تكايا الدراويش « المولوية »

ثم أدخلوا عادة « التمزيق » والمقصود بها تمزيق الثياب أثناء الذكر وهذه العادة أقرب الى تقليد الامراء الذين كانوا يسمعون الغناء من القيان فيطربون فيمزقون ملابسهم ثم انحدر الذكر الى أعمال تقرب من الشعوذة مثلما يحدث من بعض الفرق من الطرق الصوفية، كالرفاعية بالبصرة، والبيومية بالقاهرة، والعيسوية بمكناس بالمغرب الأقصى، ومن ذلك أكل الحيّات والافاعي وشظايا الزجاج واللهب، ووخز البدن بأبر من الحديد المحمى

وقد استنبط الصوفيون من القرآن جميع الرموز والاشارات التى استعملوها فى طرقهم كالضوء والنور والنار والشجرة والشراب والكأس والسلام ودخول المقربين والهلال والطريق فى جبل غريبب والسفر والاسراء وحديث الغبطة ويوم المزيد ، الذى وصفه بالاسهاب الشيخ المحاسبى فى كتاب « التوهم » والدير والشراب من يد الساقى فى ضوء الشمع وتتلوه عبادة الشماس

ثم أن المسائل التى فى الشرع الظاهر هى عين مسائل الصوفية كالعدل والرضا والتوكل والتفويض والتفعيل وقدم المحدثات وتقدم الشواهد والتخلق بأخلاق الله عز وجل والانتقال من التجريد الى التوحيد

ثم انتبه أهل السنة الى بعض ما ينتقد من أحوال الصوفية كقولهم « ان الخلة تمنع الرخص والاباحة بعد موت الشهوات ، وتفضيل الغنى على الفقر ، ثم الملامسة فالحلول » فلما ظهر ذو النون المصرى وابن أبى الحوارى بمبادئهما مثل « المتعة » و « تقديس عين الجمع » و « سبحانى .. » لم يتردد أهل السنة فى اضطهاد المتصوفين ، فحكم على البسطامى والخراز والتسترى بالنفى

أما الحلاج وابن عطاء فقد صلبا ومثل بهما

وفيما يتعلق بالامام الحلاج فنحيل القارىء المحب للاستيفاء الى الكتاب العجيب الممتع الذى ألفه باللغة الفرنسية العلامة « لويز ماسنيون » فى جزئين كبيرين باسم « تعذيب الحسين بن منصور الحلاج الشهيد الصوفى فى الاسلام الذى نفذ فيه القصاص فى بغداد فى ٢٦ مارس ٩٢٢ م » طبع باريس سنة ١٩٢٢ م أى بعد استشهاد ذلك الامام بألف سنة

فلما حصل التنبيه الأول بتوقيع العقوبات من أهل السنة على بعض أهل التصوف جاء السراج فى كتاب « اللمع » ونبه المريد والسالك الى ما لا يجوز أن يصرح به كالفناء عن العبودية والبشرية والحلول بالأنوار والشواهد والمستحسنات ، وأيده السُّلمى فى كتاب « الغلطات » والغزالى فى « الاحياء »

ولا شك فى أن أهل السنة ذعروا من انتحال الصوفية بعض الأقوال التى يشكل فهمها على غير خواص القوم كقول ابن طاهر المقدسى بأن الخدمة أفضل من العبادة ، فان هذا كله أدى الى نظرية (الشاذ) وفيها كلام يقوله الصوفيون و يكاد يكون غير مفهوم لسواهم مثل أقوال الشبلى والحلاج، أما شاذيات الكيلانى والرفاعى وابن العربى فلا يدرك القارىء من معناها شيئاً ما لم يكن أحد رجلين : الأول المفتوح عليه من الله والثانى المتغلغل فى أسرار القوم ، وقد وصف بعضها العلامة محمد بن شاكر بن احمد الكتبى بقوله « الذى نفهمه من كلامه (يعنى كلام الشيخ محيى الدين بن العربى) حسن ، والمشكل علينا نكل أمره الى الله تعالى ، وما كلفنا اتباعه ولا العمل بما قاله »

ونحن نقسم المبهم من كلامهم الى قسمين :

القسم الأول عبارة عما أطلقوه من الأسماء للاحوال والمقامات ، واستعملوا الدلالة عليه الفاظاً لها عند غيرهم معان عادية مثل « الفقه » و « النية » و « النفاق » و « الرضا » و « الفتوة » واتخذوها للدلالة على درجات فى طريق الوصول وشرحها الهراوى بما فيه الكفاية فى كتابه « منازل السائرين »

القسم الثانى و يدخل فيه نظرية « الشاذ » المذكورة آنفاً ، وهى ظاهرة نفسانية تجلت بكلام مبهم ينتقده أهل السنة وغير الراسخين كقول بعضهم « قدمى على رقاب الأولياء »

(الاحاديث القدسية)

ولما كان المتصوفون يذكرون أقوالاً شتى ذات معان مختلفة يطلعون عليها فى حالاتهم بالالهام أو الوحى أو التجلى أو الفتوح الربانى فقد ظهرت نظرية « الأحاديث المرسلة » و « الأحاديث القدسية » وضرب الصوفيون صفحاً عن الاصطلاحات المعتبرة والمتفق عليها فى علوم رواية الحديث واسناده

وممن اشتهروا برواية بعض الاحاديث القدسية السادة :

ابو ذر الغفارى وله حديث « من تقرب الىَّ شبراً . . »

وكعب وله حديث « يد الله مع الجماعة »

وابن مسعود وله حديث « طوبى لمن لم يشغل قلبه بما ترى عيناه »

وحسن البصرى وله حديث « من عشقنى عشقته »

ويزيد الرقاشى وله حديث « غبطة المتحابين »

وابن أدهم وله حديث « كنت سمعه وبصره . . الخ »

ويحيى بن معاذ الرازى وله حديث « من عرف نفسه فقد عرف ربه »

وقد اختلف هؤلاء المشايخ إقداماً وتردداً فى نسبة هـذه الأحاديث الى مصدرها الأصلى فنسبها بعضهم إلى أنبياء سابقين كما فعل ابن أدهم بنسبته الحديث الى سيدنا يحيى بن زكريا وبعضهم مثل الحلاج قال أنها ثمرة الفكر والالهام ولم يخف من أمرها شيئاً

وفى كتاب الأحياء أحاديث كثيرة بغير اسناد ولا اعتراض لنا على الغزالى فى ذلك لأن كتابه كتاب أخلاق وآداب دينية وليس متناً من متون الحديث

سلسلة الطريق

منذ القرن الخامس الهجرى بدأ أرباب الطرق الصوفية يبحثون عن أسانيد سلسلتهم فى أخذ الطريق فردهم العلماء الى التابعين فالصحابة فالرسول (ص) وكانوا قبل ذلك بمائتى عام يكتفون بالخرقة أو « بالشهرة بلباس »

وفى القرن الرابع روى جعفر الخُلدى أول اسناد لسلسلة الطريق فوضعها مبتدئاً باستاذه وشيخه :

(٦) الجنيد المتوفى عام ٢٩٨ هـ أخـذ الطريق عن :
(٥) سرى « « ٢٥٣ هـ وقد « « « :
(٤) معروف « « ٢٠٠ هـ « « « « :
(٣) فرقد سنجى « « ١٣١ هـ « « « « :
(٢) حسن البصرى « « ١١٠ هـ « « « « :
(١) انس بن مالك « « ٩١ هـ

وقد تعدلت هذه السلسلة ولم تثبت على حال فأضيف اليها رجال أمثال الامام على وداود الطائى وغيرهما

والعلم الصحيح لا يجعل لهذه السلسلة شأناً عظيماً من حيث الشكل لأن الصوفية إنما اضطروا لذكرها اضطراراً مجاراة لعلماء الحديث ، أما التلقى ففير مشكوك فيه

وقد يلجأ الصوفيون في اسناد أخذ الطريق الى الخضر عليه السلام الذى هو ولىٌّ خالد يجدد شبابه كل عشرين ومائة عام مرة ويجوب أقطار الأرض باستمرار ويذهب حيث يأمره الله بحسب حاجة خلقه اليه وذكر السمنانى اسمه كاملا وهو ابو العباس بليان بن قليان بن فالج الخضر ، ويعتقد الصوفية أن فى الأرض ابدالاً هم دعائمها الباطنيون أو الروحانيون ولولاهم لمادت الأرض وخربت ، وعددهم أربعون بدلاً ومعهم ثلثمائة نقيب وسبعون نجيباً وسبعة أمناء منهم الأبرار والأوتاد والأخيار وأربعة أعمدة ومنهم الأثافى وفوق الجميع قطب الغوث وعن يمينه وشماله الامامان .

وروى المغربى أن الرئيس يعرف مرؤوسيه والعكس ممنوع .

ومما تجب ملاحظته أن التصوف الاسلامى لم يكن نظاماً أجنبياً عن الاسلام ولا دخيلاً من النصرانية أو البوذية ، وان أصول التصوف موجودة فى القرآن وفى الحديث وفى العقيدة الاسلامية وشعائر الدين نفسه . وهذا لا يمنع من الاعتراف بأن أنظمة كالتصوف أساسها الزهد والتقشف كانت موجودة فى الأديان الأخرى ولكن التصوف الاسلامى كان نظاماً اسلامياً محضاً كما بينا وان حديث « لا رهبانية فى الاسلام » ليس حديثاً صحيحاً ولم يجزم أحد من علماء الحديث بصدق اسناده .

كذلك لم تكن حياة النبى (ص) والصحابة قبل المبعث و بعده حياة نعومة ولين وطراوة بل كانت على العكس من ذلك حياة خشونة وتقشف وتحمل . وهذه هى الحقيقة على الرغم مما جاء فى طبقات ابن سعد صاحب الواقدى مما يخالف ذلك فان الواقدى وابن سعد وأشباههما من علماء أخريات القرن الثانى الهجرة كانوا يلتمسون فى الأحاديث الضعيفة والركيكة ما يبرر حياة الخنوثة والنعومة التى كان يعيشها ملوك ذاك الزمان وامراءه

ولما كان التصوف أساسه الزهد والخشونة فقد بالغ بعض المتصوفين فى ذلك من حيث التعفف عن سائر الشهوات فلا يبعد والحال هـذه أن تكون جذور التصوف فى حياة النبى وأصحابه

ومما تحسن الاشارة اليه أن كلمة الصوفى - نسبة الى الصوف - وهى النظرية التى قال بها ابن خلدون كان لها نصيب من الصحة فقد تعود بعض المتصوفين لبس الصوف، وقد جاء حين من الدهر عليهم اتخذوا فيه الصوف علامة مميزة لهم حتى كان «الثورى» أحد أئمتهم يلبس الصوف فوق الحرير وقد انتقدوا عليه ذلك ، وكان الصوف الأبيض هو المقصود ثم عدل الصوفيون عن هذه الثياب خشية القول فيهم بتقليد السيد المسيح أو حواريه أو رهبان النصارى

وقد أجمع العلماء على أن أكابر الأوليـاء من الصوفيين غير من ذكرناهم: مالك بن دينار ، البونانى ، السختيانى ، وهيب بن الورد بن اسباط ، مسلم الخواص ، البسطامى ، التسترى .

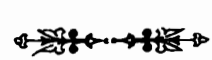

ترجمة الحكيم الالهى محيي الدين بن العربى

ولد محمد بن على بن محمد بن احمد بن عبد الله الشيخ محيي الدين ابو بكر الطائى الحاتمى الأندلسى المعروف بابن عربى فى شهر رمضان سنة ستين وخمسمائة هجريا بمرسية بالأندلس ، ولا نعرف عن طفولته شيئاً غير أنه لما نما وترعرع طلب العلم فى وطنه فتلقى مبادئه على ابن بشكوال ، ثم سافر الى مصر ودمشق ومكة و بغداد وأقام فى بلاد الروم فى طلب العلم والرجال والسياحة .

ولما كان فى بلاد الروم سمع حاكمها بصيته فانتقل اليه فلما وقع بصر الحاكم على محيي الدين قال لمن معه « هذا رجل تذعر لرؤيته الأسود ! »

فسئل محيي الدين فى معنى قول الحاكم عنه فقال « أنه لما كان بمكة خدم شيخاً صالحاً باخلاص فدعا له بقوله « الله يذل لك أعز خلقه » فكان من آثار هذه الدعوى ما شاهده ملك الروم

ولما وقعت محبته فى قلب الملك المذكور أمر له بدار تساوى قيمتها مائة الف درهم ، ويروى أن سائلاً لقيه يوماً فطلب منه احساناً فقال له محيي الدين « ما لى غير هذه الدار فخذها لك ! » وخرج عنها

قال ابن مسدى فى ترجمته « أن محيي الدين كان ظاهرىّ المذهب فى العبادات باطنىّ النظر فى الاعتقادات وأنه حج ولم يرجع إلى بلده ، وأنه تلقى العلم على ابن بشكوال وعن علماء عديدين فى العواصم التى زارها فى رحلته ، ومن بينهم السلفى الذى أجازه فروى محيي الدين عنه »

ولا ريب فى أنه برع فى علم التصوف والدليل على ذلك شهرته العظيمة فى العالم ، وكثرة مصنفاته ، وكان ينتقل من مكان إلى مكان للقاء علماء الحقيقة والمتعبدين

روى الشيخ شمس الدين فى وصف مؤلفات محيي الدين « أنه كان ذا توسيع فى الكلام وذكاء وقوة خاطر وحافظة وتدقيق فى التصوف وتآليف جمة فى العرفان قال شمس الدين

«ولولا شطحه فى الكلام لم يكن به بأس ولعل ذلك الشطح وقع منه حال سكره وغيبته»

وقال الشيخ قطب الدين اليونينى فى تعقيبه على (المرآة) « وكان محيى الدين يقول أنا أعرف اسم الله الأعظم ، وأعرف الكيميا »

قال العلامة محمد بن شاكر بن احمد الكتبى عن محيى الدين « الذى نفهمه من كلامه حسن ، والمشكل علينا نكل أمره إلى الله تعالى ، وما كلفنا اتباعه ولا العمل بما قاله »

وتوفى محيى الدين فى الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمائة أى فى الثامنة بعد السبعين من عمره

وكانت وفاته فى دار القاضى محيى الدين بن الزكى ، وقام بغسله الجمال بن عبدالخالق والقاضى الذى حصلت فى بيته الوفاة وكان عماد الدين بن النحاس يصب عليه الماء

ثم حملوه إلى (قاسيون) حيث دفن بمدفن بنى الزكى

وقبره الآن بالشام بالصالحية فى مسجد يعرف باسمه وبجواره قبر الأمير عبد القادر الجزائرى .

وقال الشيخ جمال الدين بن الزملكانى « الشيخ محيى الدين بن العربى البحر الزاخر فى المعارف الالهية » ونقل بعض كلامه فى فصل عقده فى بعض مؤلفاته على فضل مقام الصديقية وقال « إنما نقلت كلامه — يعنى محيى الدين — وكلام من يجرى مجراه من أهل الطريق ، لأنهم أعرف بحقائق هذه المقامات وأبصر بها لدخولهم فيها وتحققهم بها ذوقاً ، والمخبر عن الشىء ذوقاً مخبر عن اليقين فاسأل به خبيراً »

ومن شعره الذى يستدل به على أسلوبه فى النظم الصوفى قوله :

نفسى الفداء لبيض خرد عرب ... لعبن بى عند لثم الركن والحجر

ما أستدل إذا ما تهت خلفهم ... إلا بريحهم من طيب الأثر

غازلت من غزلى فيهن واحدة ... حسناء ليس لها أخت من البشر

ان أسفرت عن محياها ارتك سنى ... مثل الغزالة إشراقاً بلا غِيَر

للشمس غرتها ، لليل طرتها ... شمس وليل معاً من أحسن الصور

وفى شهر ربيع الأول سنة ٦٠٠ هـ لما كان الامام أبو عبد الله محمد بن العربى فى تمام الأربعين من عمره يؤدى فريضة الحج ، كتب إلى صديقه وأخيه محمد بن عبد العزيز أبى بكر القرشى المهدوى نزيل تونس فى تلك السنة رسالة أرسل فيها إليه تحية رفيقه عبد الله بدر الحبشى الذى كان معه فى الحج كما أرسل سلامه إلى أبى عبد الله ابن المرابط وأبى عتيق والحاج معافى وأبى محمد الحافظ وعبد الجبار وعبد العزيز البابلى وعبد الله القطان ، ونعى إليهم محمد التائب الذى توفى بين مكة والمدينة على مرحلة من الأولى بين مرو وعسفان ، وقال الشيخ أنه بعد أن كتب تلك الرسالة طاف بها أسبوعاً وألمسها الحجر الأسود والملتزم والمستجار وأدخلها البيت العتيق والمواضع الفاضلة تيمناً وتبركا

ولم تكن تلك الرسالة قاصرة على تبليغ الأشواق ونعى صديق الجماعة ، بل كانت تنطوى أيضاً على مسألتين من أهم المسائل التى تلقى نوراً جديداً على حياة هذا العالم الصوفى ، وقد أطلق عليها اسم « رسالة الروح القدس » وهى تنقسم إلى قسمين : القسم الأول مناجاة بين محيي الدين ونفسه وهى شبه اعتراف ، وتعنيف وتهذيب ، والقسم الثانى يشتمل على أسماء معظم الرجال والمشايخ الذين لقيهم وتلقى عنهم وصحبهم فى حياته قال « ولقد لقينا من المشايخ والاخوان والنساء ما لو دونت أحوالهم وسطرت كما سطرت أحوال من تقدم لرأيت الحال الحال والعين العين فى الأعمال والجد والاشارات وصحة القصد ، فياولىّ تعالَ نقم مأتما للفراق ، ونندب اخواننا الظاعنين ! »

مشايخ محي الدين فى الطريق

وأولهم أبو جعفر العريني ، وصل إلى أشبيلية فى أول دخول محيي الدين إلى الطريق

والثانى أبو يعقوب يوسف بن يخلف الكومى العبسى وهو من أصحاب أبى مدين ، وكان يقول « إذا شاء الشيخ أخذ بيد المريد من أسفل سافلين والقاه فى عليين فى لحظة واحدة » ، والثالث صالح العدوى ، والرابع أبو عبد الله محمد السرقى ، والخامس أبو يحيى الصنهاجى

السادس : أبو الحجاج يوسف السبريلى (نسبة الى قرية بالشرق على فرسخين من أشبيلية) ويروى لنا محيي الدين أن الشيخ يوسف هذا كان يمارس الطب الروحانى

فقد رأى محيي الدين عنده رجلاً فى عينيه وجع شديد يصيح منه مثل المرأة النفساء (كذا) فاصفر وجه الشيخ وقلع يده المباركة ووضعها على عينيه فسكن الوجع من جبينه واضطجع الشخص كأنه الميت ثم قام وخرج مع الجماعة وما به من بأس . وروى الشيخ ابن العربى رواية من قبيل القصص العجيبة وهى أنه كانت لشيخه يوسف السبريلى هرة سوداء شديدة النفور من عامة الناس ولكنها تأنس للأولياء وتميزهم

السابع : أبو عبد الله محمد بن قسوم وكان يعيش من صناعة القلنسوات و يرزقه الله حيناً من غير تعب ولا سعى

الثامن : أبو عمران موسى بن عمران المارتلى حبس نفسه فى بيته ستين عاماً، وكان على طريق المحاسبى ، لا يقبل من أحد شيئاً ولا يطلب حاجة لنفسه ، ولا لغيره

التاسع والعاشر : الشقيقان أبو عبد الله محمد الخياط وأبو العباس أحمد الاشبيلينى ، وكان الأول شديد البر بوالدته حتى ماتت وكان الثانى يُنادى من وراء حجاب

الحادى عشر: أبو عبد الله محمد بن جمهور كان يكره الشعر ولم ينشده فى حياته واذا سمع دفاً وضع أصابعه فى أذنيه

الثانى عشر : أبو على الشكّاز وكانت صناعته نوعاً من الدباغة

الثالث عشر : أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربى الطائى عم محيي الدين نفسه

الرابع عشر : أبو محمد بن عبد الله بن الأستاذ المروزى وكان من خدام ابى مدين

الخامس عشر : أبو محمد عبد الله القطان ، كان لا تأخذه فى الله لومة لائم عرض بنفسه للقتل مراراً من كثرة سبّه لأفعال السلاطين وما هم عليه من مخالفة الشريعة ، عرض عليه السلطان أن يجلس مجلسه فقال « لا ، فان مجلسك مغصوب ، ودارك التى تسكنها أخذتموها بغير حق، ولولا أنى مجبور ما دخلت هنا حال الله بينى و بينك ! » وبالجملة كان هذا الشيخ على نوع من المبالغة فى قول الحق بغير مبالاة

السادس عشر : أبو عبد الله محمد بن أشرف الرندى وهو من « الابدال » لم يأو الى معمور قريباً من ثلاثين سنة

السابع عشر : موسى أبو عمران السيد رانى ، كان من « الابدال » وكانت له عجائب وغرائب

أشهر مؤلفاته

بلغت مؤلفاته ٢٠٠ كتاب ذكر منها بركلمن الألماني في فهرست الكتب العربية ١٥٦ كتاباً وذكر أماكن وجودها واكثرها في التصوف ، وبعضها في الجفر وأسرار الحروف:

(١) الفتوحات المكية ، في معرفة الأسرار الملكية
(٢) التدبيرات الألهية
(٣) التنزلات الموصلية
(٤) فصوص الحكم في خصوص الكلم ، وله شرح بقلم ابن سويدكين سماه « نقش الفصوص »
(٥) الأسرا الى المقام الأسرى — نثراً وشعراً
(٦) شرح خلع النعلين
(٧) الأجوبة المسكتة ، عن سؤالات الحكيم الترمذي
(٨) تاج الرسائل ومنهاج الوسائل ، وهو غير تاج التراجم
(٩) كتاب العظمة
(١٠) كتاب السبعة ، وهو كتاب البيان ، والحروف الثلاثة ، التي انعطفت أواخرها على أوائلها
(١١) التجليات
(١٢) مفاتيح الغيب
(١٣) كتاب الحق
(١٤) مراتب علوم الوهب
(١٥) الاعلام ، باشارات أهل الالهام
(١٦) العبادة والخلوة
(١٧) المدخل الى معرفة الأسماء ، وكنه ما لا بد منه ، والنقباء
(١٨) حلية الأبدال
(١٩) الشروط ، في ما يلزم أهل طريق الله تعالى من الشروط
(٢٠) المقنع في ايضاح السهل الممتنع
(٢١) عنقاء مغرب ، وختم الأولياء ، وشمس المغرب
(٢٢) مشكاة الأنوار فيما روى عن الله عز وجل من الأخبار
(٢٣) شرح الألفاظ التي اصطلحت عليها الصوفية
(٢٤) محاضرات الأبرار ومسامرات الأخيار — في خمسة مجلدات
(٢٥) ديوان محي الدين ، وهو مجموع القصائد التي قالها ، غير الشعر الذي حلى به كتبه

ملخص كتاب الفتوحات المكية

فى معرفة الأسرار الملكية

كتاب « الفتوحات المكية التى فتح الله بها على الشيخ الامام العامل الراسخ الكامل خاتم الأولياء الوارثين برزخ البرازخ محيى الحق والدين » مؤلف من أربعة أجزاء كبار تقع فى اكثر من ثلاثة آلاف صفحة ، و يندر من يمكنه أن يلم بهذا الكتاب فى فصل أو فى جملة فصول، لأنه والحق يقال كالبحر الزاخر فى علوم الحقائق والتصوف وأحكام الشريعة ممتزج بعضها ببعض، ولا ريب فى أن هذا الكتاب قد ألف بالهام ولا يمكننا أن نتعرض لتفسير بعض ما جاء فيه من الآراء نثراً وشعراً مما انقسم جمهور المسلمين بسببه فرقا ، فمن قائل أن المؤلف له شطحات ، ومن قائل أنه كتب ما أراد برموز والغاز ، يدركها أر بابها للوهلة الأولى .

ومن قوله شعراً فى مفتتح الكتاب البيتان المشهوران اللذان يحتج بهما قوم من الفريق الاول وهو قوله :

الرب حق والعبد حق يا ليت شعرى من المكلَّف ؟
إن قلت عبد ، فذاك ميت أو قلت رب انّى يكلف !

ومن الفصول المهمة فى هـذا الكتاب الفصل « فى علم الحق وعلم الأحوال وعلم الأسرار » وفصل فى « اعتقاد أهل الاختصاص » وفصل فى « معرفة الروح »

و يقرر محيى الدين فى فاتحة كتابه أنه قبل بدايته فى تأليف هذا الكتاب قد كُلِّف بوضعه من ذى مقام عظيم ، ثم قال « ثم أظهرت اسراراً وقصصت أخباراً لا يسع الوقت ايرادها ، ولا يعرف اكثر الخلق ايجادها فتركتها موقوفة على رأس منبعها ، خوفاً من وضع الحكمة فى غير موضعها »

ولم نجد لصوفى نفساً طو يلاً فى الشعر والنثر كنفس هذا الامام ونضرب لذلك مثلاً قصيدته الهمزية التى مطلعها :

لما انتهى للكعبة الحسناء جسمى وحصل رتبة الأمناء

وختامها

فاشكرمعى «عبدالعزيز» الهنا ولتشكرن أيضاً أبا العذراء
شرعاً فان الله قال اشكر لنا ولوالديك وانت عين قضاء

و بجانب الفصول التى ضمنها الأسرار والرموز ، فصول جلية ظاهرة فى أحكام الشرع مثل : فصل الوضوء وأحكامه ، وأسرار الطهارة ، وأفعال الصلاة ، بتوسع واسهاب لا مثيل لهما فى أى كتاب آخر من كتب هذا العلم

وتكلم فى الجزء الثانى فى منازل الأولياء ، ومقام أهل المجالس وحديثهم ونجواهم ، وفى حظ الرسل من ربهم ومقامهم من مقام الأنبياء ، ومقام الأنبياء من الأولياء ، وفى هذا الفصل تفصيل بين نبوة الشرائع والنبوة المطلقة ، فهم من الأولياء اذا كانوا أنبياء شريعة من الدرجة الثالثة ، وان كانوا فى النبوة اللغوية فهم فى الدرجة الثانية ، وان الأولياء هم الذين تولاهم الله بنصرته فى مقام مجاهدتهم الأعداء الأربعة، الهوى، والنفس، والدنيا ، والشيطان ، والمعرفة بهؤلاء أركان المعرفة عند المحاسبى

ومن الرسل من لهم خصائص على أمتهم ، ومنهم من لا يختصهم الله بشىء دون أمته ، وكذلك الأولياء فيهم أنبياء أى خصوا بعلم لا يحصل إلا لنبى من العلم الالهى ويكون حكمهم من الله فيما أخبرهم به حكم الملائكة ولهذا قال فى نبى الشرائع « ما لم تحط به خبراً »أى ما هو ذوقك يا موسى مع كونه كليم الله ، فخرق السفينة وقتل الغلام حكماً ، وأقام الجدار مكارم خلق عن حكم أمر إلهى ، كخسف البلاد على يدى جبريل ومن كان من الملائكة ، ولهذا كان الأفراد من البشر بمنزلة المهيمنين من الملائكة ، وأنبياؤهم منهم بمنزلة الرسل من الأنبياء

و بعد أن أفاض المؤلف فى تفصيل النبوة وأسرارها وأحكامها ، تكلم فى الحب والسكر ، والتوبة ، والمجاهدة ، والخلوة ، والتقوى ، ومقامى الخوف والرجاء ، والفرق بين الشهوة والإرادة ، وشهوة الدنيا وشهوة الجنة ، والفرق بين اللذة والشهوة ، ومقام الخشوع ، والقناعة ، والتوكل واليقين ، ومقام الذكر وأسراره ، والفكر وأسراره

ثم تكلم فى أسماء الله الباطن منها والظاهر، وفى الأسماء على العموم، وانتقل إلى الكلام فى حضور القلب بتواتر البرهان ومنزل الحوض وأسراره من المقام المحمدى، ومنزل تزاور الموتى وأسراره من الحضرة الموسوية

وفى الجزء الثالث من الكتاب أفاض المؤلف فى الكلام على الحضرة الموسوية والحضرة المحمدية، وتكلم على منزل الامام الذى على يسار القطب وهو منزل أبى مدين أحد أئمة الصوفية ببنجانة بالأندلس وهو ممن لم يلقهم محيى الدين .

كلام محيى الدين فى المهدى المنتظر

ثم تكلم على المهدى المنتظر وفى معرفة نزول وزرائه فقال فى ج ٣ ص ٣٦٤ : « اعلم أن لله خليفة يخرج وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً، فيملؤها قسطاً وعدلاً لو لم يبق من الدنيا يوم واحد، طوّل الله ذلك اليوم حتى يلى هذا الخليفة من عترة الرسول يواطئ اسمه اسم رسول الله، يبايع الناس بين الركن والمقام، وهو أجلى الجبهة أقنى الأنف، أسعد الناس به أهل الكوفة يقسم المال بالسوية، ويعدل فى الرعية، ويفصل فى القضية، يمسى جاهلاً بخيلاً جباناً، فيصبح أعلم الناس واكرمهم وأشجعهم يمشى النصر بين يديه، يعيش خمسا أو سبعا أو تسعا، يصلحه الله فى ليلة بفتح المدينة الرومية بالتكبير فى سبعين الفاً من ولد اسحاق، يشهد الملحمة العظمى، مأدبة الله بمرج عكا، يبيد الظلم وأهله، يرفع المذاهب من الأرض، يفرح به العامة اكثر من الخاصة، ويبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق عن شهود وكشف، له رجال إلهيون يقيمون دعوته وينصرونه هم الوزراء، ينزل عليه عيسى بن مريم بالمنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين، متكئا على ملكين، يقطر رأسه ماء مثل الجمان، يتحدر كأنما خرج من دماس ويقبض الله المهدى اليه طاهراً مطهراً، وفى زمانه يقتل «السُفياتى» عند شجرة بغوطة دمشق ويخسف بجيشه فى البيداء بين المدينة ومكة »

ثم تكلم المؤلف فى العرش والهواء والفلك والبرزخ، وفى معرفة الأمة البهيمية

أما الجزء الرابع والأخير من هذا الكتاب النفيس، فبدأه بمعرفة منازلة الميت، والحي ليس له الى رؤيته سبيل، ومعظم هـذا الجزء فى تفاسير أحاديث قدسية أو الهامية منسوبة الى الله عز وجل مثل :

(١) « من دعانى فقد أدى حق عبوديته ، ومن أنصف نفسه فقد أنصفنى »
(٢) « من سألنى فما خرج من قضائى ، ومن لم يسألنى فما خرج من قضائى »
(٣) « أسمائى حجاب عليك فان رفعتها وصلت الىّ »
(٤) « أحبك للبقاء معى ، وتحب الرجوع الى أهلك »

ولولى الله السيد محمد عبد السلام رضى الله عنه الذى انتقل الى البرزخ فى هذا الوقت تفسير بليغ عجيب لهذا الحديث .

وهذا الجزء الرابع كالأجزاء الثلاثة السابقة بحر زاخر فى الحكمة الالهية والفلسفة الشرعية وذكر الأسباب والنتائج والأسرار الباطنية والألغـاز العليا فى الكون والخليقة والشريعة والوحى والالهام والولاية والقطبانية

ولا يليق بعالم أو متصوف أو أديب أن يبقى بدون المام بهذا الكتاب الذى يعد فريداً فى بابه فى سائر اللغات

أما قبر الشيخ العظيم فقد اكتشفه فى الشام السلطان سليم الأول العثمانى ويذكرون ان الشيخ كان ذكر عبارة رمزية للدلالة على قبره وتاريخ اكتشافه ونصها « عند ما يدخل السين فى الشين يكشف عن قبر محى الدين » والمقصود بذلك عند دخول السلطان سليم بلاد الشام يكشف قبر هذا الحكيم .

اعتراف محيي الدين ومناجاته بينه وبين نفسه

قال محيي الدين « رأيت فى منامى كأنى أُدخلت الجنة ولم اكن رأيت ناراً ولا حشراً ولا حساباً ولا شيئاً من أهوال القيامة ، ووجدت فى نفسى راحة عظيمة ، فلما استيقظت علمت أن فى حالى بعض اختلال ، وأن نفسى ادعت فوق حالها من جهة ما أعطاها الله من العلم ، ولو كانت متحققة بالحق تحققاً عقلياً مقدساً الهياً يغنيها عنها لم تلتذ بدخول الجنة ، فأرادت أن تقيم علىّ الحجة القاطعة من جهة تقسيم الحقائق الانسانية ومراتبها ، فلم أسمع لها ، ودارت بينى و بينها المحاسبة الآتية :

ابن العربى — يانفس لا أتركنك على دعواك حتى أعرض أحوالك على كتاب الله وسنة رسوله (ص) فان وافقت ذلك سلمت لك ، وان وجدتك دون ذلك فانا ألطف بك وأرحمك بأن أمشى بك على أحوال أهل الصفّة وعلى أحوال الصحابة والتابعين وتابعى التابعين فان قصرت عن شأوهم فالنار أولى بك

نفسه — أما النبى (ص) فلا أعرض حالى مع حاله أدباً معه ، وكذلك القرآن فانه البحر الأعظم ، ولكن حسبك من دون القرآن والنبوة خذ معى فى مراتب الولاية وأنا المنقادة السميعة السهلة المطيعة

ابن العربى — أخرجى اسنى ما تدعين وأعلا ما تحفظين، وأنا أعرض أولا حال أهل الصفّة

نفسه — قل !

ابن العربى — كان سبعون من أهل الصفة يصلون فى ثوب ، فمنهم من يبلغ ركبتيه ومنهم اسفل من ذلك ، والله ما أجتمع لهم ثوبان ، ولأحضر لهم من الأطعمة لونان ، ناشدتك الله يانفس ، فهل أنت أفقر منهم ؟

نفسه — لا

ابن العربى — فلست أذن منهم ، أستحى من الله وأرجعى على عقبك ولا تطاولى لقوم لست منهم فى شىء !

نفسه — على بغيرهم فليس لى هنا قدم

ابن العربي — قال عمار بن ياسر وهو يسير على شط الفرات « اللهم لو أعلم أن أرضى لك عنى أن أتردى فاسقط فعلت ، ولو علمت أن أرضى لك عنى أن ألقى فى هذا فاغرق فيه فعلت » ناشدتك الله يانفس ، هل خطر لك هذا قط فى رضى الله لا تبغين به بدلا ؟

تفسه — لا والله فانتقل بى عن هذا !

ابن العربي — هذا عمر بن الخطاب لما أسلم قال له النبي (ص) « ياعمر استره » قال رضى الله عنه « والذى بعثك بالحق لأعلننه كما أعلنت الشرك ! » ناشدتك الله يانفس هل قمت لى قط فى دين الله تعالى حامية عنه فى موطن دونه النفوس الحداد ، وعدم الناصر يغلب فيه على ظنك أنك تقتلين فيه؟

نفسه — لا والله ، وانما قاربت هذا المقام ، ولكن بسياسة وطنت بها نفوس الأعداء بحيث أن غلب على ظنى الامن والعافية فى دمى

ابن العربي — فارجعى !

نفسه — نعم ، هات غيره

ابن العربي — كان عثمان بن عفان يطعم الناس طعام الأمارة ، ويدخل بيته فيأكل الخبز والزيت ، هل فعلت هذا مع أصحابك قط ؟ آثرتهم باللطيف وقنعت بالخشن

نفسه — لا والله ، بل كنت على أحد وجهين معهم ، ان لم يكن عندى طعام غير ما جعلت بين أيديهم شاركتهم فيه ، وان كان عندى أرق منه أكلت وحدى ذلك ، مثل الحلو أو الخوشكنان ، وأقول هذا غذاء لين والبس على نفسى بهذه الترهات حتى لا أتنغص به عند أكله ، وأقول هؤلاء الاخوان فى مقام التربية فينبغى أن لا أزرع حب الشهوات فى قلوبهم باطعامهم مثل هذا ، ومقامى لايؤثر فيه هذا الطعام ، فلا بأس بتناولى اياه فآكله على هذه الحال وقد عميت عن مطالبة الحق ، فى موازنة المعاشرة وأدناها أن أشاركهم فى خشونتهم لما أعرفه من تأثير الحقائق ، ولا شك أن عثمان ما فعل هذا فى بدايته وانما فعله بعد التمليك

ابن العربي — بارك الله فيك يانفس اذ أنصفتنى

نفسه — الحق أحق أن يتبع هات غيره

ابن العربى — هذا الامام على كان اذا أرخى الليل سدوله وغارت نجومه يتمثل فى محرابه قابضاً على لحيته ويبكى بكاء الحزين وهو يتضرع بقوله « يا ربنا ! » ثم يخاطب الدنيا بقوله « غرى غيرى ، واخدعى سواى ، فقد تبت عنك ثلاثاً ، فعمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك كثير ، أواه ! من قلة الزاد وبعد السفر ، ووحشة الطريق » فهل صاحبت هذه الحال استصحاب هذا الامام ؟

نفسه — لا والله ، انما هى بوارق تلمع، وأهلة تطلع، فى أوقات دون أوقات، والغالب الشتات ، لولا انى أريد أن أقف منك على أحوال هذه السادة لطويت معك بساط المناظرة وعدلنا عن هذه المحاضرة .

ابن العربى — هذا الذى بشرت غير ما مرة أنك فى مقامه : أبو بكر الصديق (رض) (وهذه أشارة الى أن محيي الدين بن العربى كان فى مقام الصديقية) خرج حين توفى رسول الله (ص) وعمر يكلم الناس ثم قال بعد أن تشهد « أما بعد فمن كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله عز وجل فان الله حى لا يموت ! » ثم تلا قوله تعالى « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ » الآية ، فسكن جأشهم بالقرآن وهو لم يزل ساكن القلب مع الرحمن ، ناشدتك الله يانفس هل حصلت بالسر الذى تدعينه أنه قد حصل لك من الحق حالا ومقاما من تعظيم الله ما علمت به تعظيم من عظمه الله من جهة تعظيم الله اياه ؟

نفسه — لا والله ياولى ، انما أنا بين فناء وبقاء ، وتلاش وانتعاش ، واقبال وادبار ووصول ورجوع، وما كنت فهمت هذا من هذا الكلام الذى خرج من فم الصديق حتى نبهتنى عليه ، فانتقل بى عن هذا المقام فقد قصم ظهرى

ابن العربى — ان النبى (ص) عاش فى البؤس وضنك العيش حتى رق له عمر لما أثر شريط السرير فى جنبه فقال عمر « تذكرت كسرى وقيصر » فقال النبى(ص) « اما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ » أين أنت يانفس من قول سلمان الفارسى حيث ذكر ما فتح الله على المسلمين من كنوز

كسرى فقال « ان الذى أعطاكموه وفتحه عليكم وخولكم لمسك خزائنه ومحمد (ص) حى ، ولقد كان يصبح وما عنده دينار ولا مد من الطعام ، بم ذاك يا أخا بنى عبس ؟ » فانظرى يانفس كلام هذا الصاحب وشرحه لحالة النبى (ص) وتعريفه وتقريبه بقوله « بم ذاك ؟ » ثم أنه لو كانت الدنيا تنال على حسب المراتب عند الله من الرفعة لكانت كلها لرسول الله (ص) وهذه حالته فى دنياه ولم يرض لقرة عينه بنته فاطمة أن تنال فيها راحة ولا توسعاً ، هذا وقد رأى أثر حبل القربة فى عنقها من حمل الماء وأثر الرحى من الطحين فى يديها ، وجاءه السبى فلم ير أن يعطيها خادماً يحول بينها وبين ذاك الشقاء الذى نزل بها ، وأعطاها بدل ذلك تسبيحاً وتحميداً وتكبيراً وقال هو خير لكم ، فأين أنت يانفس وهذا العارف فلا الحق رضيها لنبيه ولا النبى (ص) رضيها لابنته ووصيه فهل قنعت يا نفس بعد أن لم تحدى لك قدما مع أحد من الصالحين ؟ فمن أتبعت ؟ وبمن تأسيت ؟

نفسه — أتبعت هواى ، فتأسيت بشيطان مدع فى المعرفة ، مكب على الدنيا مثلى ، فأثمرلى الدعوى ، وعرانى من ملابس التقوى ، وأنا أتوب الى الله وأتضرع اليه فى الوفاء والعدل والميزان !

[وبعد أن أسترسل محي الدين فى ذكر أخبار قويس القرنى وعبادته وزهده ومقابلته لهرم بن حيان ختم مناجاته بقوله لنفسه]

ابن العربى — فهذا يا نفس من بعض أخبار قويس الذى أحببته لله وفى الله ، ولولا خشية التطويل لأشبعناك من أخباره وأخبار أمثاله من سادات التابعين ، ولكنك قنعت بهذا القدر ، فالتزمى طاعة الله وطاعة رسوله (ص)

قال محي الدين بن العربى « فاسلمت اسلاماً جديداً — يقصد نفسه — الله يثبتها عليه ، وأخذت منها العهود التى أخذ النبى (ص) على نساء المؤمنات ، فالتزمت ذلك كله عارفة قدر ذلك ومالها فى الوفاء به ، وما عليها من الرجوع عنه »

« هذا ياولى — مخاطباً صديقه عبد العزيز المهدوى — أبقاك الله ما اتفق بينى وبين نفسى فى مكة المشرفة »